ISSN : 2543-3938 - EISSN : 2602-7771

الشّيخ عبد الحليم بن سماية شاعرًا

Sheikh Abdul Halim bin Smayah, a poet

د. هناء شبايكي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة- (الجزائر)، chebaikihana@gmail.com

تاريخ الإستلام: 11/ 01/ 2021 تاريخ القبول: 09/ 04/ 2021 تاريخ النشر: 20/ 04/ 2021

ملخص:

تهدف هذه الدّراسة إلى الوقوف على جانب مهمّ من حياة أحد رجالات العلم والمعرفة في الجزائر، وهو الشّيخ الرّاحل عبد الحليم بن سماية باعتباره شاعرًا، وهي الجزئيّة الخفيّة في حياة الرّجل الذي عُرف باهتمامه الكبير بعالم التّربية والتّعليم والدّراسات الشّرعيّة طول حياته.

لقد استطاع الشّيخ عبد الحليم بن سماية أن يكون بحقّ أحد أهمّ أعلام الإصلاح في الجزائر، وذاع صيته خارجها لاسيّما أنّه تنقّل لطلب العلم في دول أخرى.

لقد بدا الشّيخ عبد الحليم بن سماية من خلال مقطوعاته الشّعرية شاعرًا فذًّا ينظم على طريقة الكبار، ولا يستطيع المتلقّي العاديّ فكّ شفرات نظمه إلّا بمساعدة معجم لغويّ، فجمع الشّيخ بذلك بين ذوق فنيّ بارع واهتمام بالغ بمختلف العلوم، فتميّز في كلّ منهما وأبدع حقّ الإبداع.

الكلمات المفتاحية: الإصلاح؛ بن سماية ؛ الجزائر؛ شاعرا ؛ علماء.

***

Abstract

This study aims to identify an important aspect of the life of one of the men of science and knowledge in Algeria, who is the departed Sheikh Abdel Halim bin Samayah, as a poet, and it is the hidden part in the life of a man who was known for his great interest in the world of education and legal studies throughout his life.

Sheikh Abdel Halim bin Samayah was able to be rightfully one of the most important figures of reform in Algeria, and his fame spread abroad, especially as he was transferred to seek knowledge in other countries.

Sheikh Abdel Halim bin Samayah appeared through his poetry compositions as an inimitable poet, regulating in the manner of adults, and the ordinary recipient cannot decipher his systems except with the help of a lexical dictionary. Thus, the sheikh combined a brilliant artistic flair and an intense interest in various sciences, so he distinguished in each of them and being creative as well.

Keywords: Algeria; A poet; Bin Samayah;Reformation; Scholars.

I. مقدمة

الشّيخ العلامة المصلح **عبد الحليم بن سماية** عالمٌ شهيرٌ طبق صيته آفاق العالم الإسلامي، تفتخر الجزائر باسمه وعلمه ووقوفه المستميت في وجه الاستعمار الفرنسيّ الغاشم، الشّيخ بحرٌ من العلوم والمعارف بذل سنوات عمره في تحصيلها وفهمها وإيصالها إلى جموع العامّة والخاصّة من خلال الدّروس التي كان يلقيها في المساجد والأماكن العامّة.

تبرز هذه الدّراسة جانبًا مهمًّا لم يتطرّق إليه الباحثون في حياة الشّيخ بن سماية، وهو كونه شاعرًا، ينظم على طريقة الكبار، فلفهم نصوصه يحتاج القارئ إلى الاستعانة بمعجم لغويّ ليفكّ شفرات الأبيات ويدرك مغزاها، ويلاحظ على الشّيخ قلّة قصائده التي كانت في عمومها عبارة عن مقطوعات شعريّة.

ولعلّ الشّيخ بن سماية ككثير من علماء الجزائر الذين ينتمون إلى زمن يجمع فيه العالم بين علوم شتّى، كأنّهم يعتبرونها اجتهادًا واحدًا مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا، فقد جمع الشّيخ بن سماية بين التّعمّق في دراسة وتحصيل العلم الشرعي والذّود عن حمى اللّغة العربيّة فكان الشّعر لسانه المعبّر النّاطق.

اهتمت الدّراسة ببيان حياة الشّيخ بن سماية وبدايات تنشئته، إضافةً إلى إظهار قصائده للعيان وبيان مناسبة كلّ منها مع تحليل فنيّ بسيط لكون الدّراسة غير منصبّة أساسًا على الجانب الفنيّ بل تهتمّ بإبراز الاهتمام الأدبيّ عند الشّيخ.

أولا: حياته وبدايات التنشئة

ولد الشّيخ المصلح العلّامة **عبد الحليم بن سماية** على رأي أغلب المؤرّخين في سنة 1283هـ/1866م لأسرة عريقة عرفت بالجزائر العاصمة، يذكُر العلّامة عبد الرّحمن الجيلالي أنّ: " أسرة الشّيخ عبد الحليم تنتمي إلى **"آل سماية"** وهي من الأسر التركية العريقة بالعاصمة، ويرجع أصلها إلى أتراك بلدة إزمير... وترجع في نسبها إلى **حسن خوجة** قاطع السّكة بدار الإمارة الجزائريّة على عهد الأتراك".[1](عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

حظي الشّيخ عبد الحليم بن سماية برعاية كريمة من والده "عليّ بن عبد الرّحمن بن حسن خوجة"* فترعرع وفق تربية أساسها الدّين والأخلاق، ورد في ذلك أنّه: "كان يمتلك مكتبة غنيّة جدّا بعدّة عناوين لأمّهات الكتب، وقد اهتمّ بابنه اهتمامًا بارزًا، فلقّنه أصول القراءة والكتابة عن طريق تسجيله في كُتَّاب حي القصبة الشّهير، كما كان يصطحبه معه إلى مجلس درسه في المسجد، وبذلك فقد تمكّن من تعلّم اللّغة العربيّة والفقه والتّوحيد".[2] (أبو عمران الشّيخ وآخرون، 1995)

كما لازم الشّيخ عبد الحليم بن سماية كثيرًا من الشّيوخ وجلس بين أيديهم يطلب مختلف العلوم نذكر منهم: " الشّيخ علي بن الحاج موسى والشّيخ محمد القزادري والشّيخ علي بن الحفاف والشّيخ ابن ظاهر الوتري المدني والشّيخ قدور باصوم والشّيخ طاهر قيطوس، وحضر دروس الشّيخ محمد سعيد بن زكري وغيرهم، فأخذ عن هؤلاء فنونًا من العلم في اللّغة وآدابها وعلوم الشريعة".[3] (عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

إنّ اهتمامات الشّيخ عبد الحليم بن سماية تعدّت حدود طلب العلم الشّرعيّ واللّغة العربيّة فبدت له رغبة في تلقّي علوم أخرى تتشكّل خلالها ذهنيّة العالم المتكامل فاتّجه إلى: " تلقّي الحساب والفرائض عن صهره الشّيخ علي بن حمودة، وعلم الربع المجيب في الفلك والتّوقيت ومواقف العضد* كلاهما عن الشّيخ أبي القاسم الحفناوي صاحب كتاب تعريف الخلف برجال السلف وأخذ علم الأسطرلاب* عن الأستاذ عارف بك".[4] (عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

كما ورد أنّ الشّيخ كان: "من أوائل المصلحين الذين اعتنقوا مذهب الأستاذ محمد عبده الإصلاحيّ والدّاعين إليه ومن أوسع علماء عصره علمًا وثقافةً، اشتهر أستاذًا بارزًا في المدرسة الثّعالبيّة حيث تخرّج على يده جيل من المثقّفين مزدوجي الثّقافة".[5] (عادل نويهض، 1980)

وتذكر المصادر أنّ الشّيخ عبد الحليم بن سماية قد: "تزوّج في سنّ مبكّرة – إذ كان يبلغ واحدًا وعشرين سنة - من المدعوّة عائشة ابنة السّيد محمد بن مصطفى غياطو قاضي المالكيّة بالعاصمة، أنجبت له ولدين هما: سعد الدّين ومصطفى وثلاث بنات، ولإعالة أسرته امتهن الشّيخ بن سماية في شبابه التّجارة، فاكترى دكّانًا لبيع التّبغ بحيّ باب الواد تجاه جامع علي بتشنى، ولم يلتفت إلى الوظيفة إلى أن تمّت دعوته إليها فتولّى خطّة التّدريس بالمدرسة الرّسميّة في يوم 4 ديسمبر 1896".[6] (عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

وبعد وفاة والده الشّيخ عليّ بن عبد الرحّمن بن حسن خوجة تذكر المصادر أنّه:" في 15 أكتوبر 1900م، أُسندت إليه خطّة التّدريس بالجامع الجديد مكان والده، فشمّر الشّيخ عن ساعد الجدّ والاجتهاد وكرّس حياته لخدمة الملّة الإسلاميّة، وأخذ على عاتقه القيام بالمنصبين أحسن قيام فقسّم ساعات العمل اليوميّ بين المدرسة والمسجد، فجعل منها للمسجد 12 ساعة في الأسبوع وللمدرسة 14 ساعة، وشرع في تدريس علوم اللّغة والشّريعة والمنطق".[7] (عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

ومن آثاره نذكر:" <<اهتزاز الأطواد والرّبى من مسألة تحليل الرّبا>> رسالة طبعت سنة 1911م، <<الكنز المدفون والسرّ المكنون>> رسالة صغيرة طبعت بالجزائر، << فلسفة الإسلام>> قرأ الفصل الأوّل منه في مؤتمر المستشرقين الرّابع عشر الذي انعقد في الجزائر سنة 1905م، وله عدّة مقالات في الأخلاق والمجتمع نشرها في جريدة "كوكب إفريقيا" وجريدة "الإقدام" ".[8] (عادل نويهض، 1980)

ومن آثاره أيضًا مخطوط على مستوى المكتبة الوطنيّة بالحامّة عنوانه:" شرح الشّيخ عبد الحليم بن سماية على مفهومة الشّيخ المكّي بن عزوز يتكوّن من 52 صفحة".[9] (عبد الحليم بن سماية، دت)

يذكر الأستاذ **أحمد توفيق المدني** في مذكراته واصفًا الأيّام الأخيرة للشّيخ عبد الحليم بن سماية بقوله:" بعد أن أُحيل الشّيخ على المعاش أصبح ملازمًا الوحدة والسّكوت، إذا ما أنت ظفرت منه بكلمة كنت محظوظًا....كان سكوته نوعًا من الفرار من الدّنيا، هذا رجلٌ أصابه اليأس في الصّميم، واصطلى من الاستعمار الفرنسي بنار الجحيم، وأصبح يحيا في حالة نفسيّة لا تُنتظر معها سلامةٌ إمّا موت وإمّا جنون، وتقول الأنباء أنّ الشّيخ قد فقد عقله وأخذ يهذي ولا يعرف ما يقول".[10] (أحمد توفيق المدني، 1977)

كما أشار إلى ذلك **الشّيخ الجيلالي** بقوله: "أصبح الشّيخ في أواخر حياته عديم المبالاة بنفسه،فلا يلتفت إلى مظهره ولا إلى هيئته في ملبسه وسمته وهندامه، وحتّى في سلوكه وحياته اليوميّة العاديّة العامّة، كلّ ذلك تغيّر منه إلى شبه أحوال من يسمّونهم بالمجاذيب، فاتّخذ لمركبه حصانًا وتمنطق سيفًا وأخذ يتجوّل ما بين أرباض العاصمة وأحيائها، وتارةً يسافر إلى ما جاورها من البلاد القريبة منها مثل البليدة و القليعة والمدية وشرشال ولا يبالي أين أدركه اللّيل أو طلعت عليه شمس الغد، واستمرّ الشّيخ على هذا النّمط من حياته فترة من الزّمن، ثمّ استقرّت حاله وسكن نوعًا ما، ثم انتابه الأمر مرّة ثانيةً بصفة أهون من حالته الأولى".[11] (عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

ويضيف **الشّيخ الجيلالي** متحدّثا عن وفاة الشّيخ بقوله: "وهكذا إلى أن حلّ شهر رمضان لسنة 1351هـ، إذ كان يلقي الدّروس على جموع المصلّين وفي اللّيلة الخامسة من الشّهر المبارك حضر إلى المجلس كعادته وشرع في تقرير موضوع الدّرس، وفي الأثناء شعر بفتور عام في جسمه وعلاه شحوب فصمت هنيهة فلمّا رآه

الحاضرون على ذلك فزعوا إليه وأخذوا بيده إلى منزله، ختمت أنفاسه الزّكيّة ليلة الخميس 05 رمضان 1351هـ، الموافق ل 02 من شهر جانفي 1933، ومضى منصرفًا إلى جوار ربّه، شيّعت جنازته في اليوم الموالي ودفن بتربة الشّيخ عبد الرحمن الثعالبي".[12] (عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

ثانيا: الشيخ عبد الحليم بن سماية شاعرا

ليس غريبًا أن يجمع رجلٌ بصفات الشّيخ عبد الحليم بن سماية بين عدد كبير من العلوم التي تتراوح بين العلم الشّرعيّ وغيره كالحكمة والفلسفة و المنطق والحساب و اللّغة العربيّة.

فقد كان الشّيخ:" بليغًا يتكلّم بفصاحة وعبارة منقّحة بليغة وألفاظ فخمة، وذلك يرجع إلى غزارة مادّته اللّغوية التي كوّنها أو تكوّنت بسبب انكبابه على مطالعة معجم لسان العرب، حتى كاد أن لا تخفى عليه مادّة من موادّه، فهو لا يتنازل في دروسه للّغة العاميّة أبدًا اللّهم إلّا بعض النّوادر أو الحكايات التي قد يسوقها أحيانًا في المجلس للتّسلّي وهي لا تخلو من فائدة، وبهذا الصّنيع فقد تخرّج على يده جمعٌ من الأدباء والعلماء شغلوا مناصب التّدريس والقضاء والإفتاء والإمامة في مختلف أنحاء القطر الجزائري، وفيهم من شارك في وظائف سامية بالمغرب الشّقيق".[13] (عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

وللشّيخ عبد الحليم بن سماية مقدرةٌ كبيرةٌ على التّرسّل ونظم الشّعر يُذكر أنّ: "له مكانةً عاليةً في نثره ونظمه، فهو يكتب على أسلوب البلغاء من الرّعيل الأوّل فلا تكلّف ولا تعسّف وتارةً يميلُ إلى السّجع".[14] (عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

لقد ذكر الأستاذ **محمد رشيد رضا** قصيدةً للشّيخ عبد الحليم بن سماية كان قد نظمها في الأستاذ **محمد عبده** يقول في ذلك: "اطّلعنا على قصيدة تزيد عن الخمسين بيتًا للشّيخ عبد الحليم بن علي بن سماية أشهر علماء الجزائر، مدح بها الأستاذ الإمام وأرسلها إليه في القاهرة من عهد قريب، فسرّنا منها أنّها آية من آيات صلة علماء الإسلام بعضهم ببعض في الأقطار المتباعدة وشعور أهل المغرب منهم بما يشعر به أهل الشّرق من قدر الأستاذ".[15] (محمّد رشيد رضا، 1904)

ويذكر أنّ الشّيخ عبد الحليم بن سماية: "كان من المتأثّرين بفكر الشّيخ محمد عبده وعند زيارة هذا الأخير إلى الجزائر سنة 1903م كان من بين المستقبلين له، و حرص على ملازمته ليلًا ونهارًا فلم يفارقه طيلة إقامته بالعاصمة حتى غادرها الإمام إلى تونس، وقد كتب الإمام محمّد عبده رسالةً للشّيخ، يعدّد فيها ما تميّز به الشّيخ من نعمة العقل والأدب، وبأنّه يملك مقوّمات إمام القوم، مسديًا إليه بعض النّصائح التي دأب العلماء على تبادلها فيما بينهم".[16] (محمّد رشيد رضا، 1904)

يقول الشّيخ عبد الحليم بن سماية في مطلع قصيدته في الإمام الشّيخ محمد عبده:[17] (محمّد رشيد رضا، 1904)

فَأَنْتَ لَنَا شَمْـسٌ تُنِيـرُ عَلَى المدَى ... أَتَى نُـورُهَا مِنْ غَيْـرِ أَنْ نَتَطَـلَّعَا
أُدِيرُ بِذِكْرَاكَ الذِي مِنْكَ قَدْ مَضَى ... فَأَشْرَبُ كَأْسًا بِالصَّفَاءِ مُشَعْشَعَا
يَذَكِّـرُنِيكَ المجْـدُ وَالعِلْـمُ وَالتُّـقَى ... فَأَنْظُـرُ مِنْ عَلْيَاكَ عَـرْشًا مُرَفَّـعَا

شرح الألفاظ: أُدِيرُ: أدير به بمعنى أصابه الدوار، **مُشَعْشَعَا:** شعشعتُ الماء، مزجته بالماء.

نظم الشّيخ مطلع هذه القصيدة على طريقة الشّعراء القدامى من ناحية توظيف كلمات تنتمي إلى بيئة أدبية معروفة، فشبّه الشّيخ محمد عبده بالشّمس التي تنير الدّنيا فيأتي نورها ساطعًا يضيء الكون بأسره، فكأنّنا أمام بيت النّابغة الذبياني حين قال:

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَ المُلوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

كما وظّف مصطلحات الشّرب بامتزاجه والكأس وذهاب العقل، فعقله يذهب بمجرد تذكّر خصال الرّجل وما مضى من جميل فعاله تمامًا كما يذهب الخمر بعقل شاربه، فكأنّنا أمام معلقة عمرو بن كثوم حين قال:

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي خُمُـورَ الأَنْـــدَرِينَا

مُشَعْشَعَةً كَـأَنَّ الحُـصَّ فِيهَا إِذَا مَا المَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا

ليشير في البيت الثّالث إلى المجد العظيم والعلم الوفير والتّقوى التي تميّز بها الشّيخ محمد عبده وعَلِمها العام والخاصّ.

ويقول الشّيخ أيضًا في تذكّر تلك المجالس التي جمعته بالشّيخ محمد عبده:[18] (محمّد رشيد رضا، 1904)

وَتُلَـوِّي إِلَى تِلْكَ المجَـالِسِ فِكْرَتِي فَتَتْـرُكُ قَـلْبِي بِالخَيَـالِ مُمَتَّـعَا

مَحَافِلُ كَانَ العِلْـمُ فِيهَا مجُالِسِي أُسَـامِرُ بَدْرًا بِالجَـلَالِ تَقَنَّـعَا

فَأَسْمَعَ فَصْلًا مِنْ حَكِيمٍ وَحِكْمَةً إِذَا مَا بَدَتْ خَرَّتْ ذُرَى الزُّورِ رُكَّعَا

شرح الألفاظ: وَتُلَوِّي: من الفعل لوّى، **ولوّى الأمرَ:** صعّبه وعوّصه، لوّى عليه سبل الخروج من الأزمة، **ذُرَى:** جمع ذروة وهي أعلى الشّيء وقمّته.

لقد لازم الشّيخ عبد الحليم بن سماية الشّيخ محمد عبده في زيارته الجزائر سنة 1903، وحضر معه جميل المجالس التي عقدت آنذاك، وفي هذه الأبيات نجده يرجع بذاكرته مشتاقًا إليها فيتذكّر كيف كانت المحاورات والمناقشات تزيّن تلك المجالس، وكيف كانت الحكمة تنطق فتخرّ قمم الزور والبهتان ركعًا، وتذكر المراجع أنّ:" الشّيخ عبد الحليم بن سماية قد اشتهر من بين أساتذة عصره بالصّلابة في الدّين، ودفع شبه المعارضين بما يستنبطه من الأدلّة اليقينيّة، فإنّه كان مهما تعرض عليه بعض الشّبه التي يُدلي بها بعض الناس– نحو الإسلام- وأغلبهم كان من مشائخ الإفرنج، حينما كانوا يتّصلون بتلامذة الأستاذ بالمدرسة، إلّا ويتصدّى لها الشّيخ بالمناقشة والحوار العلميّ حتى يدحضها بناصع برهانه وصحيح استدلاله".[19] (عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

ويقول الشّيخ في القصيدة نفسها مدافعًا عن الشّيخ محمد عبده:[20] (محمّد رشيد رضا، 1904)

فَمَا بَالُ أَقْـوَامٍ هَدَى اللهُ عَقْلَهُمْ يُمَارُونَ فِيهِ وَالسَّحَـابُ تَقَشَّـعَا

أَلَمْ يَنْظُـرُوا الآثـارَ تَشْهَدُ بِالعُلَى وَأَنَّ نَبِيـعَ المَاءِ يُوجِـــبُ مَنْبَعَا

لِسَانٌ مَتَى يَوْمًا تَأَلَّـــــقَ بَـرْقُهُ يُسَبِّحُ رَعْدُ السَّـــامِعِينَ لِمَا دَعَا

أَمِنْ بَعْدِ إِجْمَـاعٍ عَلَيْهِ وَأَخْـــذِهِ نَرَاهُ عَلَى أَيْـدِي الهَوَى قَدْ تَرَوَّعَا

شرح الألفاظ: يُمَارُونَ: مارى الشخصُ الشخصَ: ناظره وجادله، نازعه وخالفه، **تَقَشَّـعَا:** زال شيئا فشيئا، **تَرَوَّعَا:** فزع.

يدافع الشّيخ عبد الحليم بن سماية في هذه الأبيات عن الشّيخ محمد عبده ويتعجّب من الرّافضين لأفكاره، رغم قوّة حجّته وصدعه بالحقّ، فقد لاقى الشّيخ أشكالًا عديدةً من الرّفض والتّضييق في مصر وذلك بسبب أفكاره التّجديديّة التي لم يقبلها رجال الأزهر والقائمون على الحكم السّياسيّ آنذاك، فهو رجل إصلاح وداعية وإمام إسلامي، عُرِف بفكره الإصلاحيّ ودعوته للتّحرّر من كافّة أشكال الاستعمار الأجنبيّ ومحاولاته المستمرّة من أجل الارتقاء بالمؤسّسات الإسلاميّة والتّعليميّة وسعيه الدّائم للإصلاح والتّطوير في الأزهر والأوقاف والمحاكم الشّرعيّة، فبذل كثيرًا من الجهد من أجل تحقيق التّطوّر والإصلاح في المجتمع رغم ما تعرّض له من سجن ونفي.

ويقول الشّيخ أيضًا في القصيدة نفسها مشيرًا إلى علم الشّيخ محمد عبده وعمله فوصفه بالعالم والخطيب المصقع والمحاور البارع المحكّم العقل في مناظراته، المترفّع عن حمل الحقد والضغينة في قلبه تجاه مخالفيه في الأفكار.[21] (محمّد رشيد رضا، 1904)

فَهَلْ مِرْيَةٌ مِنْ بَعْدِ حَقٍّ مُشَاهَدٍ ... وَمَا الحَقُّ إِلَّا أَنْ تَــرَاهُ وَتَسْمَــعَا
يَقُــولُ يَشُدُّ الفِعْــلَ مَتْنُ بَيَانِهِ ... وَمَا القَــوْلُ لَوْلَا الفِعْلُ إِلَّا مُصَدَّعَا
يُطَالَبُ بِالأَعْمَالِ فِي العِلْمِ أَهْلُهُ ... وَحُقَّ لَهُ مِنْ عَــالِمٍ قَــدْ تَضَــلَّعَا
لَعَمْرُكَ مَا تُغْنِي العُلُومُ وَحِفْظُهَا ... إِذَا لمَ تَكُنْ فِيهَا خَطِيــبًا وَمِصْقَعَا
تُحِسُّ بِهَا كَالمَاءِ يَسْــرِي بِعُودِهِ ... مَتَى رَامَــهُ فِكْــرٌ لِأَمْرٍ تَجَمَّــــعَا
أَتَى بِكِتَــابٍ فِي الكَــلَامِ بَيَانُهُ ... يُغَــادِرُ مِنْ صُمِّ الجَنَــادِلِ خُشَّعَا
وَيَمْسَــحُ رَانَ القَلْبِ عَمَّنْ لَهُ رَنًا ... يُسَكِّــنُ جَأْشَ القَلْبِ مَهْــمَا بَرْدَعَا
بَرَاهِينُهُ فِي النَّفْسِ وَالكَوْنِ وَالحِجَا ... وَلَيْسَتْ لِرِسْطَالِيسَ أَوْ مَنْ تَصَنَّعَا
تَنَــــزَّهَ عَنْ دُورٍ وَغِــلِّ تَسَلْسُلٍ ... وَكَمْ سَلْسَلَــتْ آيَاتُهُ مَنْ تَنَطَّــعَا
يَقُــــودُكَ لِلْبُــــرْهَانِ غَيْرَ مُقَيَّدٍ ... يُرِيكَ حُــدُودَ العَقْلِ مَهْمَا تَطَلَّعَا

شرح الألفاظ: مِرْيَةٌ: الجدل والشجار و النزاع والشك، **تَضَلَّعَا:** امتلأَ شِبَعًا أَو رِيًّا، تَضَلَّع من العلوم ونحوها،تضلَّع في العلم، تضلَّع من العِلْم: تمكَّن وترسَّخ فيه، نال حظًّا وافرًا منه، **مِصْقَعَا:** مُحَدِّثٌ مِصْقَعٌ: بَلِيغٌ، ذُو فَصَاحَةٍ وَبَيَانٍ، خَطِيبٌ مِصْقَعٌ: عَالِي الصَّوْتِ، **الحِجَا:** العقل، **رِسْطَالِيس:** هو تعريب لكلمة **أرسطوطاليس** الفيلسوف اليوناني المعروف، ويخفّف اسمه فيقال أرسطو، **تَنَطَّعَا:** التَّنَطُّعُ فِي الكَلَامِ: الْمُبَالَغَةُ فِيهِ وَالتَّكَلُّفُ.

يذكر الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي حديثًا عن الشّيخ عبد الحليم بن سماية حول الشّيخ محمد عبده في وقوفه في وجه الباطل وحواراته التي تحتكم إلى المنطق قائلًا:" ... ومن عجيب أمره – أي من الشّيخ محمد عبده- أنّه ما خالفه مخالفٌ في مجلسه إلّا وتمكّن من إلقاء القبض عليه بجندٍ من جنود الحقّ حتّى يوقفه إلى جنبيه، وكلّ ذلك بكلامٍ لا يخالطه اللّغط وعقلٍ لا يستفزّه الطّيش وخلقٍ لا يأتي على وسعه ضيق، بمقدّمات ينتزعها من وجدان مخاطبه حتى يضطرّ إلى الإقرار والاعتراف بنفسه من نفسه، ولعلّها وراثة من شيخه جمال الدّين الأفغاني الذي تظافرت الرّوايات عنه أنّه ما خاصم أحدًا إلا وخصمه".[22] (عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

ويشير عبد الرّحمن الجيلالي إلى أنّ الشّيخ عبد الحليم بن سماية كان:" صاحب تخصّص في الشّعر بنظم الموشّحات على أسلوب ما نظمه شعراء الجزائر وعلماؤها من موشّحاتهم المولديّة الشّهيرة الموزونة، على مقتضى الأنغام والألحان و الطّبوع الموسيقيّة الأندلسيّة التي أشــار إليها الشّيخ سيدي أحمد بن عمّــار في

رحلته <<نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب>>، وكأنّ الشّيخ يحسن هذا الفنّ".[23] (عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

يقول الشّيخ عبد الحليم بن سماية:[24] (عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

يَا رَوحَ سَـارٍ تَعَطَّـرْ
مِنْ نَشْرِ أَهْـلِ الخِيَامِ
بِاللهِ تَتَخَـــــطَّرْ
وَتَحْمِلْ إِلَيْهِمْ سَـلَامِي
بَلِّغْ إِلَى أَهْــلِ طَيْبَة
مِنِّي عَظِيـــمَ التَّحِيَّة
قِفْ وَقْفَةُ مُسْتِطِيـبَة
عِنْدَ كَرِيمِ السَّـــــجِيَّة
وَانْشُـقْ هُنَالِكَ طَيْبَة
مِنْ رَوْضَةٍ عَبْقَـــرِيَّة

شرح الألفاظ: رَوحَ: راحَةَ، **تَتَخَطَّرْ:** تخطَّر في مشيه: تبختر عُجْبًا وخُيَلاءَ، **انْشُـقْ:** من الفعل **أنشقَ** يُنشق، إنشاقًا ، فهو مُنْشِق ، والمفعول مُنْشَق، أَنْشَقَهُ الطَّبِيبُ دَواءَ: أَشَمَّهُ إِيَّاهُ بِواسِطَةِ الأَنْفِ.

نظم الشّيخ عبد الحليم بن سماية هذه المقطوعة الشّعريّة على قالب الموشّح، وتحمل هذه الأبيات في طيّاتها شوق الشّيخ وكلّ مؤمن إلى زيارة بيت الله الحرام، فجاءت في صورة فنيّة رائعة ترسّم زيارة سارٍ إلى هذه الدّيار المباركات، طالبًا منه أن يبلّغ التّحيّة والسّلام للأرض وأهلها.

وللشّيخ عبد الحليم بن سماية قصيدةٌ أخرى نظمها بمناسبة اطّلاعه على صنيع الأستاذ **أحمد الأكحل*** في رسالته **<<روح السّعادة>>** المطبوعة بالجزائر سنة 1343 هـ /1925م يقول فيها:[25] (عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

رَعَى اللهُ امْرَأً يَرْعَى المعَـــالِي ... يُسَـامِرُ نَجْمَـهَا جُنْحَ اللَّيَالِي
لَهُ نَفْـسٌ لهَا لَحْـــظٌ طَمُوحٌ ... إِلَى أَعْلَى ذُرَى حُسْـنِ الخِلَالِ
لَهُ عَقْـــلٌ لَهُ أَنْفٌ شَمُـوخٌ ... أَبَى إِلَّا طُلُـــــوعًا كَالهِلَالِ
وَخَيْرُ النَّاسِ مَنْ يَهْدِي أُنَاسًا ... إِذَا رَكِبُـوا أَهَاوِيـــجَ الظَّلَالِ
وَخَيْرُ الهُدَى هُدًى مِنْ لِسَانٍ ... أَمُونٍ نَاصِـــــعٍ لِلزُّورِ قَالِي

ويقول في القصيدة نفسها:[26] (عبد الرّحمن الجيلالي، 1973)

إِذَا ضَيَّعْتَ عُمْـرَكَ فِي مُحَالٍ ... مَتَى تَسْـــمُو إِلَى أُفُقِ الكَمَـالِ
فَوَقْتٌ لِلطَّـعَامِ وَوَقْتُ نَرْدٍ ... وَأَوْقَـــاتٌ عَلَى قِيـــلٍ وَقَـالِ
مَتَى تَتْـرُكْ أَخِي لِلْعِلْمِ وَقْتًا ... فَنَجْمُ العِلْمِ عِنْدَكَ نَجْمُ خَالِ

يحثّ الشّيخ عبد الحليم بن سماية في هذه الأبيات الإنسانَ على طلب العلم لما له من أهميّة في حياته، ويحذّر من ضياع العمر واستغراقه في عادات بالية لا تسمو بروح الإنسان إلى العلياء، ولا تحقّق له غاية خلقه، وهي نصيحة عابرة للأجيال، صالحة في كل وقت وحين، وحقّ له أن يقدّم مثل هذه النّصيحة وهو القدوة، العالم الفذّ الجليل.

يقول الشيخ عبد الحليم بن سماية معتذرًا:[27] (مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثّقافيّة، 2020)

أَمَوْلَايَ شَمْسَ الفَضْلِ وَالعِلْمِ وَالنُّهَى ... وَأَجْدَرَ مَنْ يُجْـرِي اللَّبِيبُ ثَنَاءَهُ

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ عَـــاطِرٌ مُتَضَـــوِّعٌ ... كَمِسْكٍ ذَكَا بَلْ لَا يَكُـونُ بَوَاءَهُ

وَأَفْضَلُ تَكْرِيـــمٍ وَأَزْكَى تَحِيَّـــةٍ ... يُقِيمَانِ لِلْقَـــدْرِ العَظِيمِ وَفَاءَهُ

وَيَرْأَبُ كُلٌّ مِنْهُـــمَا نَـــأْيَ عَبْدِكُمْ ... بِغَيبَتِهِ عَمَّا إِلَيْـــــــهِ دُعَاءَهُ

عَلِمْتُ بِأَنَّ المشْيَ عَنْ جَفْـــنِي وَاجِبٌ ... إِلَيْكُمُ وَلَكِـنْ لِي اعْتِـذَارٌ وَرَاءَهُ

شرح الألفاظ: مُتَضَوِّعٌ: تضوَّعتِ الرَّائحةُ: طابت واشتدّ انتشارُها، **ذَكَا:** ذَكَتْ ريحُ المِسْكِ: فاحَتْ رائِحَتُهُ، سَطَعَتْ، **بَوَاء:** كفء ونظير، **يَرْأَبُ:** يُصْلِحُ، **نَأْيَ:** النَّأْيُ: البُعدُ.

نظم الشّيخ عبد الحليم بن سماية المقطوعة معتذرًا عن حضوره مأدبة دُعي إليها من طرف ملك المغرب حين زار الجزائر، ورد في ذلك: "كان الشّيخ عبد الحليم بن سماية شديد الكره للمستعمر الفرنسيّ، فلمّا زار ملك المغرب في تلك الفترة الجزائر ودعاه إلى مأدبة أقامها اعتذر له بقصيدة لطيفة، قال الدّكتور مرتاض هي أفضل من تلبية الدّعوة نفسها، ولو أنّه لبّى الدّعوة ولم يقل فيه تلك القصيدة لما كان حدثا ذا بال، ولربما نُسي ذلك اللّقاء في مدافن التّاريخ التي طالما وارى فيها الجثث المنبوذة من أحداثه، وسبب اعتذار بن سماية عن اللقاء كما ذكر الدّكتور مرتاض هو نفوره من الالتقاء بالفرنسيّين، رغم حرصه الشّديد على لقاء ملك المغرب".[28] (عبد الله لالي، 2020)

خاتمة:

الشّيخ العلّامة المصلح عبد الحليم بن سماية شاعرًا، في هذه الأسطر القليلة حاولنا المرور بعجالة على سنوات من العمل والاجتهاد والإخلاص أفناها الشّيخ في خدمة الدّين والوطن وإعلاء شأن اللّغة العربية، وتعليم وتثقيف عامّة الناس في فترة حرجة من تاريخنا، فكان بحقّ من الرّجال الذين تفخر الجزائر بهم وبتضحياتهم، وقد بدا الشّيخ بن سماية من خلال مقطوعاته الشّعريّة التي تمكّنت من الحصول عليها عبر المراجع المختلفة واحدًا من الشّعراء الذين يملكون ناصية اللّغة العربية، ويجيدون توظيفهَا توظيفًا راقيًا مرموقًا، كيف لا وهو يقرأ ويشرح للعامّة في المساجد أمّهات الكتب وقد ذكر الشّيخ عبد الرّحمن الجيلالي أمثلةً عنها: كالجوهر المكنون في صَدَفِ الثَّلاثَة الفُنون للشّيخ عبد الرّحمن بن صغير الأخضريّ بشرح مؤلّفه المخطوط، القصيدة الخزرجية في العروض لمحمد عبد الله الخزرجي الأندلسيّ، قطر الندى وبلّ الصدى لابن هشام الأنصاريّ في النحو، تفسير سورة البقرة بالجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي، إلى غير ذلك من المؤلّفات التي لا يسعنا تعدادها هنا.

كانت هذه بعض الإطلالات السّريعة على حياة الشّيخ عبد الحليم بن سماية شاعرًا اعتمادًا على ما تمكّنا من جمعه من مراجع، ولعل هناك قصائد أخرى لم نقع عليها تبرز جوانب أخرى من حياة الرّجل.

يبقى أن نشير في الأخير أنّ للشّيخ بن سماية رسائل نثرية، حريّ بالدّارسين البحثُ فيها وإبرازها كإنتاج أدبي جزائري فنيّ ينتمي إلى تراث أدبي ضخم يمثل هوية جزائرية، واجب علينا جميعًا كمهتمين بحقل الدّراسات الأدبيّة أن نقدمه لجموع القراء والمتلقين.

الإحالات والمراجع:

1- عبد الرّحمن الجيلالي، جوانب من كفاح الشّيخ عبد الرّحمن بن سماية السّياسيّ والثّقافيّ، فهرس موضوعات أعداد مجلة الأصالة الجزائريّة، العدد 13، (مارس، أفريل)، 1973، ص2371.

* والده: هو عليّ بن عبد الرحمن بن حسن خوجة، كان رجلًا مثقّفا ثقافة عربية إسلاميّة، أخذ عن العلّامة الشّيخ مصطفى الحرار الجزائري، وكان يشغل منصب التدريس بالمساجد، فكان بداية مدرّسا بجامع سفير ثم انتقل إلى مثل وظيفته بالجامع الجديد بالعاصمة.

2- أبو عمران الشّيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، مؤسّسة الجزائر للطّباعة، الجزائر، ط2، 1995، ص 246. (بتصرّف).

3- عبد الرّحمن الجيلاني، المرجع السّابق، ص .2372

4- المرجع نفسه، ص 2372.

* مواقف العضد: يقصد به كتاب "المواقف في علم الكلام" وهو كتاب في علم الكلام من تأليف القاضي عضد الدين الإيجي (ت 756ه).

* الأسطرلاب و الربع المجيب أداتان فلكيتان: إذ برع كلّ من الصوفي والفزاري ومريم الأسطرلابي والبيروني والزرقالي وغيرهم في صناعة هذه الأداة التي تجاوزت تطبيقاتها مئة تطبيق، ومن ذلك معرفة الوقت في اليوم، وحساب أوقات الصّلوات، ومعرفة أوقات الشّروق والغروب والزّوال، ومواقع الكواكب في السّماء، ومواعيد شروق النّجوم وغروبها، والطّوالع من منازل القمر، ومعرفة وقت الشّفقين الصّباحيّ والمسائيّ، ومعرفة خطّ عرض المكان، وأطوال النّجوم وعروضها بالنّسبة لمدار البروج، وغير ذلك كثير.

لكنّ أكثر ما أثار انتباه أولئك العلماء وأقلقهم هو حساب وقت دخول صلاة العصر التي لا يعتمد وقتها على ظاهرة غروب أو شروق أو زوال، بل إنّه مرتبط بطول الظلّ الذي يتغيّر في كلّ يوم وعلى مدار العام.

لذا فقد قاموا بتطوير جزء من الرياضيات الهندسية فاخترعوا مصطلح ظل التمام (كوتاين)، وهو ما وصفه البيروني مفصّلا في كتابه "استيعاب الوجوه الممكنة في صنعة الأسطرلاب"، حيث تكلّم عن الرّبع المجيب ورسم عليه قوسي العصر الأول والثّاني وفقًا لتلك المعادلات المطوّرة، وأقواسا أخرى كثيرة تصف تطبيقات عديدة أخرى. (أُنظر: هاني الضّليع: الأسطرلاب والربع أداتان فلكيتان مدهشتان، https://www.aljazeera.net/news/scienceandtechnology، تاريخ الدخول 2020/06/02 في السّاعة: 19:46).

5- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثّقافية للتّأليف والتّرجمة والنّشر، بيروت، لبنان، ط2، 1980، ص.178

6- عبد الرّحمن الجيلالي، المرجع السّابق، ص .2373

7- المرجع نفسه، ص .2374

8- عادل نويهض، المرجع السّابق، ص 178- .179

9- عبد الحليم بن سماية، شرح الشّيخ عبد الحليم بن سماية على مفهومة الشّيخ المكي بن عزوز، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائرية.

10- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح (مذكّرات)، في الجزائر 1925-1954، الشّركة الجزائريّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 1977،ص ص 48-51.

11- عبد الرّحمن الجيلالي، المرجع السّابق، ص 2380.

12- المرجع نفسه، ص 2381.

13- المرجع نفسه، ص 2375.

14- المرجع نفسه، ص 2376.

15- محمّد رشيد رضا، قصيدة عالم جزائريّ في الأستاذ الإمام، مجلة المنار، مصر، السّنة 6، ج23، م 6، 1904، ص917.

16- للتّوسّع أكثر ينظر: محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الشّيخ محمد عبده، ج2، دار الفضيلة للنّشر والتّوزيع والتّصدير، القاهرة، مصر، ط2، 2006، ص617- 618.

17- محمّد رشيد رضا، قصيدة عالم جزائريّ في الأستاذ الإمام، ص 917- 918.

18- المرجع نفسه، ص 918.

19- عبد الرّحمن الجيلالي، المرجع السّابق، ص 2374.

20- محمد رشيد رضا، قصيدة عالم جزائريّ في الأستاذ الإمام، ص 918.

21- المرجع نفسه، ص 918.

22- عبد الرّحمن الجيلالي، المرجع السّابق، ص 2378.

23- المرجع نفسه، ص 2376.

24- المرجع نفسه، ص 2376.

* **الأكحل أحمد:** هو أحمد بن يحي بن أحمد الملقّب بالأكحل، عالم، كاتب، أديب وشاعر، ولد سنة 1324هـ-1906م بمدينة الجزائر، حفظ القرآن العظيم وأخذ مبادئ اللّغة العربيّة والفقه والعلوم العقليّة عن كبار العلماء أمثال: الشّيخ محمد البوزيدي وعبد الحليم بن سماية وأبي القاسم الحفناوي بالجامع الجديد والمدرسة الثّعالبيّة والجامع الأعظم، توفيّ سنة 1399هـ- 1979م، له "روح السّعادة وسرّ الشّهادة في الحسنى والزّيادة" والعديد من الأعمال الأدبيّة والقصائد الشّعرية. (أُنظر: رابح خدوسي وآخرون، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريّين، ج1، منشورات الحضارة، الجزائر، دط، 2014).

25- عبد الرّحمن الجيلالي، المرجع السّابق، ص 2376- 2377.

26- المرجع نفسه، ص 2377.

27- ينظر: مقال على الموقع https://www.almoajam.org/lists/inner/3624، الخاصّ بمؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثّقافيّة، تاريخ الدّخول: 2020/06/09، في السّاعة: 05:55.

28- عبد الله لالي، قراءة في كتاب معجم الشّعراء الجزائريّين في القرن العشرين للدّكتور عبد الملك مرتاض، https://elauresnews.com، تاريخ الدّخول: 2020/06/16، في السّاعة: 18:03.